

استحالة الاتصال ؟

مساهمة في طرح إشكالية جديدة للاتصال

البروفيسور/ بوهروم عبد الحكيم*

ملخص:

إن توهم الاتصال خاضعا لنظام الخطاب هو نتيجة الخلط السوسيوثقافي بين المشافهة، العلامة، اللغة والتمثيلات الاجتماعية في الوقت الذي هو تعبيرا عن نظام المعاش في كليته، هذا الاستهام كاف لاستفهام وإعادة بناء المصفوفة المعرفية المؤسسة له والمبررة لأبعاده المترامية في كل الاتجاهات الاجتماعية. تهدف هذه المحاولة المصاغة في شكل مداخلة شفوية فك المفترضات الابستمولوجية التي تقوم عليها ضمنا، لأنه غير معلن عنها ولا مصرح بها، النظرية الاتصالية وتبيان، من خلال هذا الفعل المعرفي، شروط إمكانية اتصال بعيد عن كل توظيف مصلي في خدمة أغراض خاصة (مؤسسات اقتصادية، أحزاب سياسية، مؤسسات تربوية وبيداغوجية...الخ)

Résumé :

Subsumer et suggérer que la communication relève de l'ordre du discours est une conséquence sociale-historique de la confusion entre verbe, parole, langage et représentations sociales alors qu'elle est de l'ordre du vécu dont la complexité, certes imaginée mais jamais objectivement délimitée, constitue en soi une invite à reconstruire tout la matrice cognitive qui la fonde et la justifie comme interaction multidimensionnelle. L'objet de cet essai, construit sous forme de communication orale, est de déconstruire les présupposés épistémologiques, implicites car non énoncés, qui supportent la théorie communicationnelle et d'indiquer, par là-même, la ou les possibilités qui rendent la communication possible en dehors et au delà de son instrumentation sociale comme pouvoir symbolique au profit d'intérêts particuliers (entreprises économiques, partis politiques, institutions éducatives et pédagogiques...etc).

*أستاذ التعليم العالي

جامعة باجي مختار - عنابة

تمهيد :

قد يبدو من الوهمي محاولة إيضاح مصطلح الاتصال مادام مضمونه ساريا بذاته: إن الكلام بوصفه موضعا وفضاءا ووسيلة للاتصال هو بذاته الأداة المفضلة - دون أن تكون الوحيدة - للاتصال .

الكلام يفكك بصعوبة من التصورات والتمثيلات الاجتماعية التي يشكل أرضيتهما أو يستفهمهما، فالمشاهدة والفعل والكائن والرمز كلها مواضع ومركبات الاتصال :

أ - إن الجسم في صلته بذاته وبالأخر، وباللباس اتصال بوصفه خيارا وكلاما ثقافيا لفرد أو لجماعة أو لمجتمع في لحظة معينة من تاريخه؛ إن التاريخ في صلته بالضرورة هو إيصال وضع آت بوضع في صيرورة ؛ إن التناقض كماهية للحركة هو إيصال خاصيات كلية تتنافى بكلية تحمل نفيها؛ إن " الشيء في ذاته " في علاقته "بالشيء لذاته" يقوم على الاتصال وهو كذلك اتصال ، فالاتصال في كل مكان، وهو جوهر كل صلة، فهو صلة، وهذه الصلة تتعلق بكل ما يتصل، وحسب هنري لوفافر (H. Lefevbre) "لا يتم شيء في الحياة الاجتماعية بدون اتصال" (1) هذا الملفوظ يدل على سعة حقل الاتصال المتاح للتحري العلمي كلما توفرت لديه - مستعينا في ذلك بغيره - وسائل التغطية والإلمام بهذا الحقل (2).

ب - إن الإثنية مرسل / مستقبل وقناة / بلاغ ، تشكل مثلا حيا للدهاء الذي يستعمله العلم الاجتماعي (La science sociale) لفهم موضوعه : الحصرية Réductionnisme والتذرية Atomisation وليس من ضرب التسرع القول بأن كل محاولة لمعرفة موضوعية تقوم بحصر حقلها وتدخل بذاك مبدأ المعرفة المشوهة Principe de méconnaissance الذي يجعل الهدف - المحدد للمعرفة - وهميا، إن مبدأ المعرفة المشوهة الذي هو أساس المعرفة الجزئية والمجزأة، والذي ينهل منه العلم الاجتماعي عامة، يقيم إعادة البناء المشتتة والمشوهة للواقع المدرك من قبل عالم الاجتماع وعالم النفس، وعالم الاقتصاد ... ، هذا المبدأ يؤسس الصلة التي تربطهم بالخطاب العلمي وبالواقع الذي يستفهمون والذي يستفهمهم في آن واحد من جهة، ومن جهة أخرى بالسلطة العلمية الموظفة للخطابة والإصغاء لمداخلاتهم حول جانب مشوه من الاتصال .

I- استحالة الاتصال:

لنقف لحظة ليس للتساؤل حول صحة هذا الخطاب ولكن لتقديره بوصفه لحظة اتصال، إن مفعول خطابي هذا، وكذلك قيمته بوصفه مساهمة في مداخلة اتصالية لا يقوم سوى على الأثر الذي ستحدثه الكلمات التي يحملها، وقدرتها على استفهام المعاش Le Vécu الذي يحمله

(المعاش النظري والممارس) وينقله كذلك إلى فاعل يحمل بذاته معاشا محددا سواء على المستوى النفسي - الثقافي أو على المستوى الاجتماعي - التاريخي .

إن الآليات المستخدمة والمثارة لتحقيق الخطاب تنتج خطاطة للاتصال محددة بما نسميه - وقتيا - بالمتغيرات الملازمة للنفسية الاجتماعية والفاعل الاجتماعي والفاعل الفردي، ونظرا لتعدد العوامل التي يجب أخذها بعين الاعتبار تغدو مذاك مهمة إحاطة وضبط لخطّة الاتصال من زاوية مفعولها شاقة إن لم نقل متعذرة ومستحيلة، ويبقى تحليل المضمون الإخباري للخطاب بوصفه منظومة مرمزة مفتاحا للقراءة - إن كان هناك مفتاح - يسمح بهدم وإعادة بناء التصورات الأصلية، مع هذا الخلاف الرئيسي وهو أن القراءة التي تتم بها لا يمكنها إدعاء أية شهادة وفاء، لأننا نكون قد نفخنا في النص حركية خارجية لا يمكنها أن تتزايد مع حركيته الأصلية، وبعبارة أخرى، فإن هذه الموانع التي تكشف عنها هاتان المقاربتان للاتصال (واللتان تشملان إجمالا المقاربة النفسية - السوسيولوجية و المقاربة اللغوية) تسمحان باستشفاف إمكانية : استحالة الاتصال، وهذه الفرضية ليست قط منفرة أو مستهجنة ، فهي تدعو إلى قلب نظري لإشكالية الاتصال وإلى إعادة تحديد موضوعه، فلا يمكن أن يكون جوهره الكلام، ولا كذلك هذا الأخير أداته المفضلة. إن الاتصال ليس من نظام الخطاب، ولكن من نظام المعاش في كليته، وموضوعه ليس الإخبار، ولا المشافهة (Verbe)، ولا العلامة (Signe)، التي ما هي إلا ممارسات مرتبطة بممارسات أخرى هي تجريدا لها. وهكذا فإن دلالة كلمة ما - كيفما كانت - ليست بداخلها أو ضمنها لكن ضمن الممارسة، وضمن المعاش الذي تشير إليهما، إن الأمثلة التي أوردها كل من Wittgenstein و Spinoza (3) أشهر من نار على علم كي نعود إليها (، لو خاطبنا أسد لما فهمناه، مفهوم الكلب لا ينبج...)، إن معنى كلمة ... هو استعمالها وكل استعمالها ليس إلا، أما فيما يخص هذا الاستعمال فلا تتحكم فيه لا النوايا المفترضة للمتكلمين ولا نظام عالم (قابل للفهم أو محسوس) يجب وصفه، ولكن تتحكم فيه أشكال الحياة حيث يكون الكلام قائما.

II- المسئلة الاقتصادية للاتصال :

تقوم المقاربة التقليدية والمهيمنة عند علماء اللغة وعلماء النفس التي تعتبر الاتصال " كعنصر من عناصر التفاعل بين الفاعلين، ذلك الذي يرجع إلى تبادل علامات مرمزة (4) تقوم على مسئلة اقتصادية (خاصة بالاقتصاد السياسي) وهي أسبقية الإنسان على الكلام ومنه على الثقافة (5)، وهذه المسئلة التي تطرح أيضا ' مبدأ خارجية الفاعل المعرفي بالنسبة للموضوع المعرفي ' (6) تؤسس على المستوى الابستمولوجي :

1- علوم الاتصال كدراسة لظروف نقل بلاغ في أحسن الظروف،

2- الثلاثية: المرسل - القناة - المستقبل - كإطار تحليل لوسائل وظروف إكتمالية الإرسال والاستقبال والتوصيل .

إن خارجية الفاعل المعرفي (المنتج للمعرفة) بالنسبة للموضوع - المؤسس كذلك . تسمح بالإحاطة وحصر الاتصال في سوق مبادلة الألفاظ

Marché d'échange du verbe وإقصاء كل مرجع للإطار الاجتماعي حيث تنتج وينتجها معا، فالاتصال هو- في نهاية المطاف - الموضوع والوسيلة لتبادل رموزي قائم على رموزية التبادل. إن ميزان القوة والصراع والتناظر هو محدد بالرموزية الغالبة ذات محددات غير اجتماعية، تاريخية عند الاقتضاء، ولكنها أساسا نفسية . ثقافية، ومن هنا يتجلى الاهتمام المعطى لتحليل علاقات الجماعة والتفاعل بين فاعلي و عناصر نفس الجماعة، إن الوحدات الاجتماعية المكونة كموضع ملموس لإنجاز الاتصال هي تجريدات نظرية مبنية بمعزل عن تغايره الاجتماعي - الاقتصادي النوعي ، ويصبح الاتصال-مدعما بعلم الاتصال - أداة الهيمنة والموضع حيث يتحقق تنفيس الجماعة بغرض إفراغها من التوثرات المتعددة التي تعيشها.

III - المسألة الأناسية للاتصال :

المقاربة الثانية ، الممكن تأسيسها، تبنى على مسلمة أناسية (أنثروبولوجية) تطرح أسبقية الثقافة واللغة على الإنسان Antériorité de la culture et de la langue، وهذا المسار يطرح 'مبدأ داخلية الفاعل المعرفي بالنسبة للموضوع المعرفي' (7) وكذلك عجزه عن " الخروج " من الموضوع الذي هو في طور بنائه، لا يمكن بالتالي حصر الاتصال في مجرد تشافه لأنه يدرج حشد الأفعال اليومية ألا وهي الإنتاج وإعادة الإنتاج والتبادل والاستهلاك، ويسمح بوضع أسس لتصور تاريخي واجتماعي للاتصال لا يكون لغويا فقط، وإنما كذلك جسميا، وإشاريا، ومرثيا، وصلة بين الأفراد في علاقتهم بالطبيعة وبأنفسهم، وتحت هذه الصفة، يجب النظر إلى الاتصال بأشكاله المتعددة، التي لا نستطيع افتكاك أشكاله المختلفة دون المساس الضار بمعرفته، ففعل الإنتاج فعل اتصال، لأنه يكتسي بصفة متصلة بفكرة الإنتاج وبالألفاظ التي تميزه وتصفه، وعلاوة على ذلك فهو نتاج اتصال رموزي يوضح بصفة رموزية - حسب ترميز محدد - الموضوع والوسيلة والكيفية التي يتم بها الإنتاج، وهذا في نفس اللحظة حيث يكون هذا الاتصال الرموزي ممكنا بموجب تواجد وتوفر موضع ووسيلة وموضوع الإنتاج.

خلاصة:

ينكشف الاتصال ويتعري ، للأسباب والعوامل السالفة الذكر، ليبرز كإطار حاوي لعملية إنتاج وإعادة إنتاج اجتماعي لعلاقات الإنتاج الرمزية والمادية، وخارج هذا المنظور يظل الاتصال موضوعا " لحوار الطرشان " من خلال ميزان القوة الوحيد الذي يقيمه ويؤسسه : الهيمنة الرمزية والمادية لأن علاقات الاتصال " هي أيضا علاقات السلطة الرمزية أين تستجد موازين القوى بين المتكلمين أو جماعتهم الخاصة " (8).

الهوامش:

- 1- LEFEVBRE Henri (1966) : Le langage et la société, p.316. Gallimard coll. Idées. Paris
- 2- BOURDIEU Pierre (1984) :
 - Le sens pratique, p. 51 et suiv. Ed. de Minuit. Paris
 - Ce que parler veut dire : L'économie des échanges linguistiques, Ed.Fayard. Paris
- 3- LECOURT Dominique (1982): La philosophie sans feintes, p.21. Ed. J-H-Hallier/ Albin Michel. Paris
- 4- PAGES Robert (1970) : Sociologie de la communication, in Encyclopédia Universalis, cité par GRAWITZ. M. (1979) in Méthode des Sciences Sociales.p.643.4eme Edition. Dalloz. Paris
- 5- LATOUCHE Serge (1984) : Le procès de la science sociale, p.77. .Ed. Anthropos. Paris
- 6- Principe d'extériorité du sujet épistémique par rapport à l'objet de connaissance.
- 7- Principe d'intériorité du sujet épistémique par rapport à l'objet de connaissance.
- 8- Bourdieu (1984) : Ce que parler veut dire, op. cité, p. 14.